الرواية

ظل المملكة

صعود المحارب

حين يتحول الغضب إلى سلاح، تنهار العروش.

عزالدين شيخي

المقدمة

أيها القارئ العزيز،

أتمنى أن تكون بخير، وأن تجد السعادة رغم كل ما تمر به من معاناة التي لا تخلو منها الحياة. وكم يسعدني أنك تقرأ هذه الرواية الآن... يا له من شعور دافئ أن أكون، ولو للحظة، صديقك المجهول الذي يكتب إليك من أعماق القلب.

دعني أخبرك، يا صديقي، أنني لست كاتبًا محترفًا، وهذه أول رواية أخطها من منبع أفكاري. ربما أخطئ، وربما يراودني اليأس، لكني لن أفشل... لأن الفشل يعني الاستسلام، وأنا لا أؤمن بالاستسلام.

أريدك أن تحلم، أن تطمح، أن تسقط ثم تنهض، ولكن إياك ثم إياك أن تستسلم.
صدقني، نحن قادرون على تحقيق كل شيء إذا امتلكنا الإرادة.

كم يسعدني أن ترافقني كصديق في هذه الرحلة الروائية.

هذه الرواية من نسج الخيال، لكنها ليست بعيدة تمامًا عن الواقع، فيها من يومياتنا، من لحظاتنا المسروقة، من آلامنا المكبوتة، من أحلامنا المؤجلة.

نحن الآن أمام مفترق طرق، أمام حياة تتلون بين النور والظلال، تحمل في جعبتها الكثير من الدروس، الكثير من المتاهات، الكثير من الأوجاع التي لم نطلبها، لكنها أصبحت جزءًا منا.

من منا لم يخطئ؟ من منا لم يسقط ذات يوم في زاوية مظلمة، بعيدًا عن أعين الناس؟ من منا لم يبكِ سرًا؟ نشعر أحيانًا بالظلم، نحارب للوصول، ونتعب ونناضل، ولكن قليلون هم من يدركون كم كلفنا هذا الطريق.

نحن نعيش في مجتمعات تُقَدِّر المظهر وتغفل الجوهر، حيث الأناقة قد تُخفي لصًا، والغنى قد يُزين فاسدًا. عملة التقدير هنا ليست الأخلاق ولا الموهبة، بل الأوراق النقدية.

مجتمعنا يصنف البشر كما تُصنف فصائل الدم: غني وفقير، ناجح وفاشل، ذكر وأنثى، وكأننا قطع شطرنج يتحكم بها لاعب واحد لا نعرف وجهه.

المجتمع الذي يمنحك هوية لا تشبهك، فقط لأنك تجرأت على أن تكون أنت.

ترى الناجحين مستهدفين، لأنهم يشكلون خطرًا على من اعتادوا الاستغلال والفساد. أصحاب النفوذ لا يريدون من يعارضهم، بل من يطيعهم، لذا ترى الكراسي لا تُمنح إلا لمن باعوا أرواحهم، أما من يملكون فكرًا حرًا، فهم خارج الحسابات.

المأساة أن حتى المدافعين عن الحقوق، ممن نصبوا أنفسهم ممثلين عن الشعب، باتوا جزءًا من آلة القمع ذاتها، يرفضون النقد، يخافون الأصوات الحرة، ويصادرون الحلم في مهده.

أما المرأة، فهي ما زالت في أعينهم مجرد جسد، شرفها يُربط بملابسها، وكأن كرامتها، وحقها في التعبير والعمل والحياة، لا تعني شيئًا. ينسون أنها ليست نصف المجتمع، بل هي المجتمع كله، وأن الحياة لا تكتمل إلا بصوتها، بحريتها، بكرامتها.

نحن في مجتمعات الشرق الأوسط، حيث يُقمع الصوت المختلف، ويُجبر الإنسان على التعايش مع واقع لا يشبهه. لا عجب أن ترى الشباب يغادرون أوطانهم، باحثين عن بقعة من حرية، عن وطن يعترف بإنسانيتهم، لا يعاملهم كروبوتات تنفذ فقط.

وحين تتصارع داخلك المشاعر، ولا تعلم أيها الأصدق، تصاب بالحيرة. لكن لا بأس، اختر ما يلامس قلبك، حتى إن كان خطأً، فكل خطأ درس. جرب، وأعد المحاولة.

لا بأس أن تُغير مكانك أو بيئتك، فالنجاح يحتاج إلى تضحيات.

الحياة معركة مستمرة، بينك وبين نفسك، بينك وبين القيود، وبينك وبين هذا المجتمع الذي يطلب منك أن تكون نسخة عن الآخرين. لذلك، كن أنت، قاتل لأجل أفكارك، لأجل ذاتك، لأجل أحلامك. قاوم. لا تتوقف.

عبّر عن مشاعرك، لا تكتمها، لا تكن جبانًا فتضيع زهرتك وتندم. الحب لا يحتاج إلى صمت، بل إلى شجاعة.

لا تترك نيران الحب تحترق داخلك حتى تذوب، كن شجاعًا، عبّر، صارح، قاتل لأجل من تحب، لا تخجل من مشاعرك. الحب لا يُقاس بالمكانة ولا يُقيد بالمواقف، الحب هو النور الذي يجعل العالم مكانًا أجمل.

في الحب، في العمل، في الوطن، في كل تفاصيل الحياة... الحب هو الجذر الذي ينبت الأمل، ويمنحك القدرة على الوقوف من جديد.

نحن تائهون في زوايا الحياة، نحمل أعباء لا تُرى، نصرخ بلا صوت، ونعيش أحيانًا في ظلال أحلامنا المكسورة. الظروف أجبرتنا على أن نكون غيرنا، ولكن داخلنا... لا يزال ذلك الطفل يحلم، لا تزال جذوة الحياة متقدة.

أيّتها الحياة، ازرعي العدالة في دروبنا، اسقينا أملًا. نحن لم نعد نحتمل هذا الجليد المتجمد في أرواحنا. الذكريات تتلاشى، والأحلام تتآكل، ولكننا ما زلنا هنا... نكتب، نحلم، نتمرد، ونقاوم.

صديقي القارئ،

لا أعرفك، لكني أؤمن بك.

قد لا تكون هذه الكلمات عظيمة، لكني كتبتها بصدق، وربما، فقط ربما، تلامس شيئًا ما بداخلك.

دعنا نكمل هذه الرواية معًا... أنت وأنا، في رحلة قد تغيّر شيئًا صغيرًا... أو كل شيء، فلنبدأ في القراءة الرواية.

"ظل المملكة: صعود المحارب"

في قلب العالم، كانت هناك أربع ممالك رئيسية: مملكة الشرق، مملكة الغرب، مملكة الشمال، والمملكة الكبرى التي تقع في المركز وتُحكم من قبل ملكها الأوحد، الذي كانت سلطته تمتد على الممالك الثلاث الأخرى. هذا الملك، الملقب بـ "جياكروس العظيم"، لم يكن مجرد حاكم عادي، بل ورث عن أجداده قوة استثنائية: القدرة على التحكم في الحيوانات والنباتات، وقوة حاسة خامسة تنبئه بالخطر.

كان جياكروس رمزًا للحكمة والقوة، حكم شعبه بعد أن ورث العرش من والده. في عهد جده، كانت الممالك غارقة في الحروب، إذ واجه الجد عدوًا قويًا يُدعى ملك الظلال. هذا الملك لم يكن إنسانًا فقط، بل تحالف مع قوى الجن والسحر الأسود ليهيمن على الممالك الأربع.

استمرت الحرب بين جد الملك جياكروس وملك الظلال عقودًا. رجال الخلاص، وهم مجموعة سرية من العلماء والمحاربين الذين تفننوا في استخدام العلم، الذكاء، والقوة، كانوا العامل الحاسم في دحر ملك الظلال.

بدأ رجال الخلاص بتحليل طبيعة السحر المستخدم من قبل ملك الظلال. أدركوا أنه يعتمد على صخور غامضة تُعرف باسم صخور الجحيم، التي تعزز قوة الجن والسحرة.

صنعوا أدوات خاصة، مثل أقفاص بلورية قادرة على عزل الجن وتحطيم طاقتهم السحرية.

تنكر رجال الخلاص كجنود من جيش ملك الظلال واخترقوا معسكراته. تعلموا نقاط ضعفه، مثل أنه يعتمد على أعمدة النور موزعة في أنحاء المملكة.

نجحوا في تفجير هذه الأعمدة، مما أدى إلى إضعاف قدرة السحرة.

أوهموا ملك الظلال أن أحد جنوده المخلصين قد خانه، مما دفعه لاستدعاء جيشه إلى ساحة معركة محاصرة. نصب رجال الخلاص فخًا معقدًا باستخدام نباتات سامة أحاطت بالمعركة.

وقعت المعركة الكبرى في وادٍ أُطلق عليه لاحقًا "وادي الخراب". كان رجال الخلاص قد نشروا حبالًا سحرية حول الوادي، تلتقط كل من يحاول الهرب. بعد قتال شرس استمر لثلاثة أيام، قُتل ملك الظلال بيد والد جياكروس، وتم القضاء على معظم أتباعه. لكن مجموعة صغيرة من السحرة والجن فروا جنوبًا إلى أرض مجهول.

عاد والد الملك جياكروس بعد انتصاره ملكًا عادلاً حالمًا بوحدة الأرض والممالك تحت راية واحدة، راية العلم والنور. ولأنه كان يؤمن بأن التاريخ هو السلاح الأقوى، دوّن كل ما رآه وخاضه بيده في كتابٍ خاصٍ، سماه: "سجلات النور والظل". كان الكتاب يتضمن تفاصيل دقيقة عن المعارك ضد مملكة الظلال، عن السحرة الذين طردوا من الأرض، وعن رغبته الجامحة في توحيد الممالك تحت حكم عادل.

لكن في ثنايا الكتاب، كانت هناك صفحات تتحدث عن المنطقة الجنوبية، حيث الجبال الغامضة، والأراضي التي ترفض أن تبوح بأسرارها. كتب الملك فيها أن الجنوب كان الوحيد الذي لم يتمكن من السيطرة عليه، وأن من تبقّى من رجال الظلال قد فروا إليه بعد المعركة الكبرى. هناك، حسب وصفه، ستعود الظلمة، وسيُبعث السحر القديم.

بعد وفاة والد الملك جياكروس ، استلم الملك جياكروس الحكم من والده.

في عهد جياكروس ، ساد السلام والازدهار. استخدم قوته في الخير، وكان محبوبًا من الجميع. وفي أحد الأيام أثناء الصيد، التقى امرأة جميلة من قرية نائية تُدعى ليانا. كانت ليانا تمتلك روحًا حرة، وقرّر أن يتزوّجها سراً خوفاً من زوجته، على أن تبقى في قريتها دون أن يعرف أحد بأمرها.

في الوقت نفسه، كان الملك متزوّجاً من امرأة تُدعى سيرينا، والتي كانت في الحقيقة ابنَةَ ملك الظلال. لقد خدعت الملك بجمالها وذكائها، إذ كانت قد تعلّمت فنون السحر من أجدادها ووالدها، وتزوّجت الملك جياكروس بدافع الانتقام، وللسيطرة على جميع الممالك.

علمت سيرينا بأمر الكتاب القديم الذي تركه والد الملك جياكروس ، كتابٌ غامض محرم لا يجرؤ أحد على فتحه إلا من يحمل دم الملك. عرفت أيضًا أن جياكروس لم يقرأه بعد، فقد كان والده قد أوصاه ألا يفتحه إلا في وقت الشدة العظمى، حين تتهدد المملكة من الداخل.

ذات ليلة، بعد أن نام الملك جياكروس، وحينما تأكدت سيرينا من وجود الكتاب في القصر الملكي، تسللت إليه في جنح الليل، تقودها رائحة السحر القديم التي لا يخطئها قلبها. وقفت أمام الصندوق الحجري حيث خُبئ الكتاب.

بدأت بإزالة كل فقرة وكل سطر يتعلق بالجنوب، ومزّقت كل خريطة تشير إلى الجهة التي منها خرج الخراب. وأقنعت زوجها بأن الجنوب مجرّد جبالٍ لا حياة فيها، وأن الكتب التي تتحدث عنه مجرد خرافات قديمة. بل أصدرت أوامر بحرق كل كتاب يتطرق لتلك الجهة، وقامت بقتل أو نفي كل من كان يحمل علمًا عن تلك الأرض المحرمة.

لكنها لم تكن تعلم أن للملك نسخةً ثانية من الكتاب، خبّأها بعيدًا، عند رجلٍ كان يثق به كأخ... الشيخ كاهل، في قرية جبلية بعيدة.

في أحد الأيام، أخبر الكهنة سيرينا أن هناك نبوءة تقول إن شابًا صغيرًا في العمر، لكنه عظيم في العلم والمعرفة، سيطيح بملكها ويحكم الممالك كلها، وأنه من دم الملك جياكروس. شعرت سيرينا بالذعر، فبدأت بالتحقق من ذلك.

بعد أن علمت سيرينا بزواج الملك جياكروس سرًّا من فتاة قروية تُدعى ليانا، استشاطت غضبًا، واعتبرت ذلك إهانة لكرامتها وتهديدًا لمكانتها في القصر. لكن إدراكها بأن ليانا قد تحمل وريثًا شرعيًا للملك دفعها إلى التخطيط لتدميرها تمامًا، دون علم جياكروس.

أرسلت سيرينا جنًّا مأجورين وسحرة مظلمين بالإضافة إلى فرقة من جنودها السريين، ممن يُنفذون أوامرها في الخفاء، إلى قرية ليانا، بهدف تدميرها بالكامل وقتل كل من فيها، كي تُخفي أثر تلك المرأة إلى الأبد.

لكن القدر تدخّل بلطفه، إذ كانت ليانا في ذلك اليوم خارج القرية مع مجموعة صغيرة من أهلها، تقضي بعض الحاجات في أحد السهول القريبة. وعندما عادوا، وجدوا قريتهم ركامًا مشتعلًا، وقد فُني معظم من فيها. اعتقد الجميع، بمن فيهم سيرينا، أن ليانا قُتلت في المجزرة، ولم ينجُ أحد منها.

أما الملك جياكروس ، فقد وصلته الرواية مشوهة، بأن "لصوصًا هاجموا القرية"، مما جعله يغرق في حزن عميق، معتقدًا أن زوجته قد ماتت، لكن دون أن يشك للحظة أن سيرينا وراء ما حدث.

مرت السنوات، وليانا كانت قد بدأت حياتها من جديد في قرية نائية، متخفية، وهي تحمل في أحشائها ابن الملك جياكروس. لكن الحظ لم يكن رفيقها إلى النهاية، فبعد صراع مع آلام الولادة، فقدت حياتها فور ولادة ابنها.

أحد شيوخ المعرفة في تلك القرية، رجل يُدعى الشيخ فرمان، هو نفسه الشيخ الذي معه الكتاب، وجد الطفل عند أبواب كوخ ليانا التي أوصته قبل وفاتها بالعناية

بالرضيع. كان الشيخ فرمان رجلًا عظيمًا، حكيما وعالمًا، ويُقال إن علمه بلغ حدًّا جعله يعرف أسرار الأرض، والكائنات، وحتى بعض ما خفي من علوم الأسلاف.

قرر الشيخ أن يُربي الطفل كابنه، وأطلق عليه اسم أليار، وحرص على أن يُخفي حقيقته عن الجميع، حتى عن كامل نفسه.

نشأ أليار في ظل هذا الشيخ الحكيم، وتعلّم على يديه كل شيء:

القراءة والكتابة بلغات قديمة نُسيت. علم الفلك، وفهم مسارات الكواكب وتأثيراتها.

الفنون القتالية، بدءًا من المبارزة، إلى فنون القتال الأعزل. فن التفاوض، قيادة الجيوش، وفهم أعماق النفس البشرية.

ومع تقدمه في العمر، أصبح أليار شابًا مهابًا قويًا، لا يُقهر في القتال، ولا يُجارى في الحِكمة، وكان أهل القرى يتحدثون عنه بإعجاب، حتى دون أن يعرفوا أصله أو نسبه.

كان يملك في قلبه شوقًا لا يزول لمعرفة من يكون، ومن هي أمه، ولماذا يشعر أنه غريب عن العالم من حوله. وكان يحلم دائمًا برؤية مملكة عظيمة تقف على أنقاض القهر والخداع، دون أن يعلم أن دمه وحده يحمل مفتاح تلك المملكة...

فكرت سيرينا في خطة أكثر تعقيدًا للتخلص من الملك جياكروس. استغلت نقطة ضعف جياكروس: الثقة المفرطة.

أقنعت الملك بحضور وليمة أعدتها بنفسها، حيث استعانت بساحر قوي لتحضير طعام مسموم لا يمكن كشفه.

في أثناء الوليمة، طلبت من أحد السحرة أن يُتقن فن التنكر، فجعلته يبدو وكأنه رجل من قرية بعيدة يحمل أخبارًا عن تمرد قدم هذا الرجل للملك هدية عبارة عن "خنجر مرصع بالماس"، قائلًا إنه رمز للولاء، كانت هذه الهدية مسحورة بسم خفي يُطلق عند لمس الجلد.

كما استدعت سيرينا طيفًا مخيفًا جعل الملك يعتقد أن هناك خطرًا خارجيًا. شتت انتباهه لدرجة أنه تناول الطعام المسموم دون أن يشعر.

بدأ السم بالتغلغل تدريجيًا في جسد جياكروس. نتيجة لمسه للخنجر وتناوله للأكل المسموم.

مما جعله يضعف ببطء. في يومه الأخير، زارته سيرينا، وأخبرته الحقيقة: “الخنجر الذي قبلته كان نهايتك”. حاول الملك مقاومتها، لكنه كان قد فقد قوته بالكامل.

عندما كان يحتضر، كشفت له سيرينا حقيقتها: “أنا ابنة ملك الظلال، وسأنهي عهدك الآن.

بعد موت جياكروس ، استولت سيرينا على الحكم. تظاهرت بالحزن وأخبرت الشعب أن الملك مات بمرض غامض. أصبحت حاكمة مستبدة.

“سيرينا”، امرأة ذات قوة جبّارة ودهاء خارق، تولّت حكم المملكة العظيمة بعد وفاة زوجها الملك “جياكروس”. قُسمت المملكة إلى خمس ممالك فرعية، وكان لكل مملكة حاكم قريب من الملكة. ورغم أن الملكة كانت تُظهر أمام العامة أنها تترك حكام الممالك يديرون شؤونهم بحرية، إلا أنها في الخفاء كانت تتحكم بكل قراراتهم، مستعينة بسحرة ومشعوذين يدعمونها بخدعهم لتسيطر على الشعب، فينطقون ما تريد هي إيصاله إليهم وكأنه وحي سماوي.

في مملكة، كانت نسائم الليل لا تبشّر بالراحة، بل تهمس بالخوف. الجنود ينتشرون في الشوارع الضيقة، يفتّشون، يراقبون، ويخمدون أي صوت أعلى من همسة.
كانت الملكة سيرينا تحكم بيد من حديد، يدّعي مستشاروها أن الأمن مستتب، بينما الحقيقة كانت أن الأرصفة تنزف خوفًا، والبيوت تنبض بالجوع.

سكان المملكة لا يملكون سوى الخضوع. لا حرية، لا رأي، لا تعبير. مجرد أوامر تُلقى من عرش بارد، وأرواحٌ تنكسر تحت وطأة الضرائب والجوع والبطالة.

في الزوايا المظلمة من حيّ فقير يدعى كولات، بدأت همسات التغيير. مجموعة صغيرة من الحرفيين والفلاحين والمثقفين اجتمعوا سرًا، يخططون لكسر دائرة القمع. كان على رأسهم رجل يُدعى إيلان، معلمة سابقة تدعى مارا، وشاب ثائر اسمه أريان. خططوا للمطالبة بحقوقهم وتخفيف الضرائب وتحسين أحوالهم.

لكن الخيانة وجدت طريقها، فقد وشى بهم أحدهم. وأمر قائد الحرس جنرال موراك بسجنهم، ثم أعدمهم علنًا ليكونوا عبرة.

لم تُخمد الإعدامات لهيب الغضب، بل أشعلته. تحولت الهمسات إلى هتافات، وصار الصمت تمردًا. اجتمع الناس في الساحات، قُطعت الطرق، وتحرّك الغضب كالنار في الهشيم. الجنود قمعوا، ضربوا، لكنهم لم يستطيعوا إخماد الشعب.

في القصر، اجتمعت الملكة مع مستشاريها، وقد شعرت بخطر لم تعهده منذ تربعت على العرش. جاءت إحدى العرافات الموثوقات وأخبرتها أن هذا التمرد هو علامة أولى على انهيار حكمها، كما جاء في نبوءة قديمة.

فاقترح مستشارها السياسي الجديد، الشاب الذكي لوسيان، أن تظهر الملكة بمظهر جديدة: الملكة الرحيمة، التي لم تكن تعلم ما يجري. وافقت الملكة، وخرجت لأول مرة إلى الشوارع.

وقفت الملكة أمام شعبها، وقالت:

"لم أكن أعلم بما جرى. لقد خانني قائد الجنود موراك، وقد عزَلته فورًا. وسأقوم الآن بتأسيس مجلس شعبي يضم ممثلين منكم، وسنقلل الضرائب، وسنبدأ مشاريع لتشغيل الشباب."

فرح الناس، وعادوا إلى بيوتهم، وقد ظنّوا أن الملكة تغيّرت. لكن الحقيقة كانت أن سيرينا خطّطت لشيء آخر تمامًا.

في الخفاء، أنشأت الملكة جهازًا سريًا أطلقت عليه اسم "ظل العرش"، يقوده لوسيان نفسه. هذا الجهاز مهمته تتبع كل من كان منخرطًا في التمرد، لكن بذكاء: ليس بالقتل العلني، بل بالإغراء، التفتيت، والاغتيالات المقنعة.

أصبح بعض قادة المقاومة يعملون لحساب القصر دون أن يدركوا. ومن رفض، اختفى. والشعب انشغل بالمشاريع الجديدة، والعمل التي بدأت تبدأ في الزراعة والمناجم "فأبعدت أغلبهم عن المملكة، وأشغلتهم بالعمل لا سلطة لهم فيها. وفي المقابل، بدأ الجنود بقتل وسجن كل من عارض الحكم، دون محاكمة أو تهمة واضحة. حتى أولئك الذين يعملون في الخارج لم يسلموا، فقد لاحقتهم الاتهامات بالسرقة والخيانة، وتمت تصفيتهم بصمت. وبهذه الطريقة، قضت على كل صوت معارض، وفرضت حكمًا من الخوف والصمت.
لم يعد أحد يجرؤ على الكلام، حتى الهمس بات خطرًا. تحولت المملكة إلى سجن كبير، تزينه الشعارات، وتخنقه العيون المتلصصة. أما هي، فكانت تجلس على العرش واثقة، لا ترى في الدماء التي سالت إلا خطوة أخرى نحو 'الاستقرار' كما كانت تسميه".

وعاد كل شيء كما كان الفقر وجوع وفرض الضرائب والبطالة.

بعد عدة سنوات عاد الناس إلى الخروج وكما بدأت ترتفع، مطالبة بتعيين ملك حقيقي لكل مملكة، ووضع حدّ لهيمنة الملكة. لتسكّن الغضب، أعلنت الملكة مسابقة لاختيار حكّام الممالك، عبر اختبارات قاسية تُثبت قدرة المرشحين. ظاهريًا، الهدف هو إرضاء الشعب، لكن في باطن الأمر، أرادت الملكة التخلص من كل من يمكن أن يهدد عرشها أيضا.

وبدأ الاختبارات القاسية للراغبين في الحكم.

على الراغبين أن يواجهوا مجموعة من محاربي الملكة المدربين تدريبًا استثنائيًا. المحاربون يستخدمون أسلحة وسيوفًا مُعززة بالسحر الذي يجعل كل ضربة أشبه

بالإعصار. أول اختبار كان أن يواجه كل مرشح عشرة محاربين في قاعة مظلمة مليئة بالمرايا التي تشتت النظر، مما يجعل القتال شديد الصعوبة.

لم يستطع أحد الصمود أكثر من بضع دقائق. المرايا تسببت في إرباكهم، والمحاربون كانوا يقضون على كل مرشح بسهولة.

كما وضعت الملكة لغزًا معقدًا في غرفة مليئة بالتماثيل، حيث على المرشح أن يختار التمثال الصحيح الذي يرمز إلى "العدل". كل تمثال كان متشابهًا تقريبًا، لكن التمثال الصحيح كان يحمل سرًا لا يُعرف إلا لمن لديه معرفة عميقة بتاريخ المملكة.

عندما كان أحد المرشحين يختار التمثال الخطأ، كان التمثال يطلق سهمًا مسمومًا يقتله على الفور.

كما طُلب من كل مرشح أن يُثبت ولاءه المطلق للملكة من خلال خيانة أقرب الأشخاص إليه. أُحضر أفراد من عائلاتهم وأُمروا بقتلهم كدليل على الولاء.

رفض البعض قتل أحبائهم وقُتلوا فورًا. أما من وافق على قتل عائلته، فقد تم اتهامه بالخيانة وعدم الثقة به، وتم إعدامه أيضًا.

كما اختبرت من خلال العبور في المتاهة المسحورة آخر اختبار كان العبور عبر متاهة مليئة بالفخاخ السحرية والألغاز. المتاهة كانت تتغير باستمرار، وكل خطأ يؤدي إلى انفجار أو إطلاق سهم مسموم.

لم يتمكن أحد من اجتياز المتاهة، إذ كانت الملكة قد صممتها بحيث لا يمكن الخروج منها أحياء.

لم ينجُ أحد من الاختبارات. الشعب شعر بالخوف من الملكة أكثر من أي وقت مضى، ولم يجرؤ أحد على المطالبة بحاكم جديد.

في القرى البعيدة عن العاصمة، كان يعيش "أليار". وكان يجمع الكتب القديمة في السر، ويتعلم عن الجغرافيا والتاريخ المحرّم الذي منعته الملكة. كان أليار يعلّم أطفال القرى القراءة والكتابة.

كان أليار يتساءل منذ صغره:

لماذا لا تتحدث الكتب عن الجنوب؟

هل من الممكن أن تكون أرضًا بلا شعب؟

أم أن هناك من يخشى الحقيقة؟

وكان الشيخ كاهل يجيبه دائمًا بنظرة حزينة، دون أن يبوح بالحقيقة، كأن الصمت نفسه كان يخاف الحديث. وظلت الأسئلة تتصاعد في قلب أليار، خاصة حين بدأ يرى بعينيه قوة الملكة، وكيف استطاعت أن تفرض إرادتها على الممالك كلها، دون أن تهتز لها خطوة.

حتى جاء اليوم الذي لفظ فيه الشيخ كاهل أنفاسه الأخيرة.

في ليلٍ بارد، وعلى ضوء نارٍ هادئة، نادى الشيخ على أليار، وأخرج صندوقًا عتيقًا من تحت أرضية كوخه.

قال بصوت مرتجف:

"أليار ... لقد خبأتك عنهم كما خبأت هذا الكتاب. أنت ابن جياكروس ... وأنت الحقيقة التي لم يكتبها التاريخ بعد."

فتح الصندوق، وفيه نسخة كاملة من "سجلات النور والظل" بخط جده والد ملك جياكروس.

بدأ أليار يقلب الصفحات بسرعة وعيناه تدمع، ليقرأ وصف الجنوب، الحديث عن رجال الظلال الذين فروا، والمملكة التي تبني سحرًا من العدم في الظلام، كان كل شيء واضحًا الآن...

الملكة لم تحكم بالسيف فقط، بل بالظلال التي جاءت من الجنوب.

في تلك اللحظة، شعر أليار أن قلبه بدأ ينبض باسم أبيه، وبنداء الحقيقة.

لقد كان الوريث الحقيقي... لمملكة مزّقتها الخيانة.

والآن عليه أن يوحّد ما فرّقوه... ويُسقط من استباحت التاريخ.

اكتشفت الملكة عبر جواسيسها أن أليار يمتلك كتبًا ممنوعة. أرسلت جنودها لإحراق منزله وتدمير قريته. في ليلة مظلمة، هاجم الجنود القرية، وقتلوا العديد من السكان، وأحرقوا الكتب التي وجدوا بعضها في بيت أليار. لكن الحارث العجوز، ساعده على الهرب كان يرافقه صديقه منذ الطفولة اسمه سردار.

الحارث أرشدهم إلى طريق مخفي عبر الجبال، وطلب منهم ألا يعودوا أبدًا. أليار حمل معه خريطة قديمة وكتابًا واحدًا تمكن من إنقاذه. قبل أن يغادر، أحرق الحارث بيته بالكامل ليخفي أثر أليار، مما جعل الملكة تظن أنه مات في الحريق.

في إحدى الليالي الباردة، كان أليار وسردار يختبئان في أحد الكهوف العميقة الواقعة في جبال.

سردار، بينما كان يراقب الخارج، أومأ برأسه. كان يشعر بشيء غريب، شعور بعدم الارتياح في قلبه. لن يمر وقت طويل قبل أن تكتشف الملكة أننا نقترب من أسرارها.

لكن، قبل أن يتمكن من إتمام جملته، سمعا صوت خطوات قادمة من بعيد، تتناثر في الهواء البارد. كان الصوت يزداد قوة، وفي ثوانٍ معدودة، أصبحت الأصوات قريبة جدًا. كانت فرق من جنود الملكة سيرينا تقترب منهم بسرعة، مستفيدة من قدراتها السحرية الخاصة بالبحث والتعقب.

الجنود همس أليار، وعيناه تتسعان، لقد اكتشفوا مكاننا.

“لا وقت للهرب الآن!” قال سردار، وهو يلتقط سيفه بسرعة هيا يا صديقي إلى المعركة.

كان سردار يقاتل بجسده قبل سيفه، كأنه يُقسم ألا يصل أحدٌ إلى أليار. في عينيه نار حارقة، وفي صدره صدق صامت لا تملكه الكلمات.

أليار صاح:

«سردار! ارجع! سنُحاصر!»

لكنه لم يُجبه، بل استدار نحو أليار، وابتسم — تلك الابتسامة المألوفة التي كان يملؤها الأمل، ثم قال:

«منذ كنا صغارًا، كنت أسبقك في السباق... دعني أسبقك هذه المرة أيضًا.»

قبل أن يفهم أليار المعنى، باغت أحد جنود الملكة سردار من الخلف. سيف مسموم مزّق جسده من الكتف إلى القلب. سقط على الأرض بقوة، كأن الزمن كله ارتطم بتلك اللحظة.

صرخ أليار، ركض نحوه، ركع بجانبه، رفع رأسه فوق ركبتيه، وصدره يعلو ويهبط من الذهول.

الدماء... كانت كثيرة.

«لا... لا... لا... سردار! لا تفعل بي هذا...»

همس أليار وكأنه يحاول أن يصحّح القدر.

بابتسامة شاحبة، رفع سردار يده المرتجفة، ووضعها على خد أليار:

«أنا فخور بك، يا أليار... أكمل الطريق. لا تفقد نفسك...وانطفأت عينيه.

اختنق أليار... شهق شهقة كادت تمزق صدره. صرخ صرخة ملأت السماء، كانت أشبه بانفجارٍ داخلي، كأن كائنًا حيًا تمزق في أحشائه.

احتضنه، وبدأ يهزه:

«سردار... انهض... أقسم أني لن أتركك... لقد وعدتني أننا سنعود معًا...لكنه لم يتحرك.

بقي أليار إلى جانبه لساعات بعد انتهاء المعركة، لم ينطق، لم يرمش، فقط كان يحدق في وجهه، وكأنه ينتظر معجزة ما.

في اليوم التالي، دفنه بيديه. كل حفنة تراب كانت كأنها تبتلع قطعة من روحه. عند قبره، قال:

«لقد كنتَ أكثر من أخ... كنت قلبي عندما نسيت نفسي... كنت ظلي حين كنت أهرب من قدري...

ومنذ تلك اللحظة، تغيّر أليار.

صار وجهه أكثر هدوءًا... وصمته أكثر عمقًا... ونظراته مشحونة بالحزن والغضب والأمل المكسور.

كلما سار، شعر أن خطواته تجر جسدين، لا جسده فقط.

كلما نام، حلم بسردار يضحك، ثم يبتعد، يبتعد، حتى يُصبح نقطة بعيدة في الأفق.

وكان في كل معركة بعدها... قبل أن يشد على سيفه، يغمض عينيه ويتمتم:

هذه من أجلك، سردار سأكمل.

وصل أليار ، إلى إحدى القرى التي رفضت الخضوع للملكة، بعد رحلة متعبة، انتهى به المطاف في قرية هادئة تدعى نيرال، تقع بين الوديان، وتحيط بها الأشجار العالية وكأنها تخبئ سراً لا يريد أن يُكشف.

وصل أليار مُتعبًا، بثياب ممزقة ووجه تكسوه آثار الهروب. استقبلته سيدة مسنّة في منزلها، دون أن تسأله كثيرًا... فقط قالت: "الليل يخبئ من تعب النهار، ارتح قليلاً.

في اليوم التالي، بينما كان يساعد الفلاحين في أحد الحقول، التقى ليان، فتاة ذات شعر فاحم، وعينين كأنهما تراقبان العالم بحذر. كانت قوية، صامتة أغلب الوقت، لكنها تبتسم حين تُفاجأ. شيئاً فشيئاً، بدأت النظرات تنمو بينهما، تكبر كما تنمو زهرة بين صخور الجبال.

جلسا ذات مساء عند نبع الماء، سألها:

– "أتصدقين أن القلب يستطيع أن يثق فجأة في شخص غريب؟"

أجابته بعد صمت:

– "الثقة أحيانًا لا تحتاج وقتًا... يكفي أن يكون في الصوت صدق، وفي العين وعد."

مرت الأيام، وتعلقا ببعض. كانت تحكي له عن القرية، عن ظلم الملكة، وعن أماني أهلها بالحرية. أما هو، فكان يخبرها عن رحلته، عن الخطر الذي ما زال يطارده، وعن وطن يحلم أن يولد من جديد.

مرّت أيام أليار في قرية نيرال كأنها تنتمي إلى حياة أخرى، لا تشبه حياة الهاربين. كان يساعد الفلاحين، يصلح أدوات الزراعة، يعلّم الأطفال القراءة والكتابة، ويستمع لهم تحت ظلال الأشجار كما لو كان واحدًا منهم منذ زمن.

في إحدى الليالي، هجم قاطعو طرق على أحد بيوت القرية، مستغلين ظلمة الجبال. حين سمع أليار الصراخ، انطلق دون تردد نحو البيت المهدد.

أمسك عصًا من الخشب، وتسلل من الخلف عبر شجرة قديمة تُطلّ على السطح، وراح يصرخ بصوت مُفتعل:

– إنهم رجال الجبل احذروا .

فزع اللصوص وفرّوا، دون أن يعلموا أن من صرخ كان وحيدًا، بلا دعم... فقط شجاعة

لكنّ قلبه لم يهدأ... ففي كل صباح، كان يراقب الطرقات، يخشى أن يرى خيال فارس من جنود الملكة يقترب من حدود القرية.

كانت ليان تقابله كل مساء عند النبع، حيث يتحدثان عن المستقبل.

سألته ذات مرة:

– "لو خيّروك بين الثورة والحب، أيهما تختار؟"

ابتسم وقال:

– لو كانت الثورة من أجل أن يعيش الحب، سأقاتل... أما إن كانت لتأخذني منك، فكل العروش لا تستحق طلّة من عينيك.

لكن الحب لا يعيش وحده... سرعان ما علم كبار القرية بأمره، وشكّوا في نواياه.

هو غريب... وقد يجلب علينا غضب، الملكة قال أحد الشيوخ.

"أخرِجوه... أو اقتلوه قبل أن تتلطخ أيدينا بذنبه، صاح آخر.

حين علمت ليان بالأمر، بكت بصمت، ثم ذهبت إليه في تلك الليلة، وهمست له:

– "عليك أن تغادر، الليلة. الطريق عبر الجبال آمن... لكن لا تلتفت."

أمسك يدها، وقال بصوت مكسور:

– "سأعود... لن أغادر قلبك. سأعود لأتزوجك، أمام القمر والشمس، أمام من أرادوا فرقتنا، وسأجعل من حبنا راية."

قبل مغادرته، جلس مع ليان تحت مطر خفيف، كان ينهال كما لو أن السماء تبكي عليهم.

قالت له:

– "أخاف ألا تعود."

أجابها:

– "وإن لم أعد جسدًا، ستعود روحي كل ليلة، تقف هنا... تهمس لك: أنا وعدت."

ثم التفت إلى الطريق، وهمس:

– "سأعود، لأجلك... ولأجل كل من ظن أن الحب لا يليق بالهاربين.

مدّ يده نحوها، وفي راحته وشاحٌ ناعم من حريرٍ نادر، تفوح منه رائحة الزمن القديم.

“هذا وشاح أمي،” قال بصوتٍ خافت، “كانت ترتديه في الأيام التي تشعر فيها بالأمل... واليوم، شعرتُ أن ليان تستحقه أكثر من أي أحد.”

أخذته ليان بتردد، ودمعة خفيفة ترقرقت في عينيها. لم تكن تعرف أنه بهذا الوشاح، لا يمنحها قطعة من الحرير، بل يمنحها جزءًا من ماضيه، من قلبه، ومن شيءٍ لم يمنحه لأحد من قبل.

قالت له:

– إن عدتَ، ستجده على باب بيتي، وإن متّ... فليشهد أني كنت أحبك.

أخرجت من جيب عباءتها قلادة بسيطة من قشٍ مجدول، صنعتها بيديها، وربطتها بخيط صغير.

“اعلم أنها ليست ذهبًا ولا جواهر...” قالت وهي تمدها نحوه بخجل، “لكنها من قلبي. احتفظ بها... رجاءً.”

نظر إليها أليار ، وقد تأثر بصدقها أكثر من أي كنز رآه في حياته. تناول القلادة بين يديه كما لو كانت كنزًا مقدسًا، ثم نظر في عينيها وقال:

“ستكون أغلى من حياتي... لأنها منك.”

ابتسمت ليان، ومرّت لحظة صمت بينهما، لكنها كانت مليئة بكلمات لا تحتاج إلى أن تُقال.

في زمنٍ يطارد فيه الخوف أنفاس العشاق، يبقى الحبّ كالنبض، لا يُرى... لكن لا يمكن إنكاره.

ليس الوفاء أن تبقى بجانب من تحب، بل أن تظلّ تراه في قلبك، حتى وأنت بعيد، حتى وأنت تمشي على دروب الخطر.

في عينيها... نسي الحروب، والبرد، والخوف... رأى وطناً لا تملك الملكة أن تسجنه، ولا يستطيع الجنود أن يطاردوه.

أما هي... فقد أحبته كما تحب الأرض المطر، رغم علمها أن الفصول قد تأخذه بعيداً، لكنها آمنت بأن الوفاء يصنع المعجزات.

رحل أليار في ليلٍ بلا قمر، لكن قلبه ظلّ هناك، في نيرال، حيث تنتظره ليان، على أمل أن يحمل الغد وعدًا باللقاء.

غادر أليار تحت جنح الظلام، والوعد يثقل على كتفه أكثر من حقيبته. عبر الوديان، تسلّق الصخور بيديه العاريتين.

في أقصى الشمال، حيث الجبال تلامس الغيوم وتغفو الرياح بين ذُراها، تقع ناحية "أران"، ليست مجرد مدينة، بل مجموعة من النواحي التي اجتمعت كأصابع القبضة الواحدة. أرضٌ خصبة بالحكايات، ملأى بالبطولة، ولكنها تحت سلطة الملكة... أو هكذا أرادت أن يظهر الأمر للعامة.

لكن الحقيقة كانت أعمق من ذلك بكثير.

أهل "أران" هم الورثة الحقيقيون للأرض، أصحاب الدم الذي امتزج بتراب الشمال منذ آلاف السنين. هم الذين قاتلوا بجانب الجد الأعظم للملك جياكروس ، عندما كانت ممالك الأرض تتهاوى أمام زحف جنود الظلام والسحر الأسود. وحدهم رجال أران مع جنود الخلاص صمدوا، لا برجالهم فقط، بل بإيمانهم القديم، بلغتهم النادرة، وعقيدتهم التي لا تنكسر.

كانت "أران" تتكلم ... لغة الأرض، لغة التاريخ، لغة الجبال والصخر والدماء الأولى. وكل من سكنها، ورث الحكاية، وعاش على وعد واحد: "لن نُمحى، لن نُنسى، وسنعود."

الملكة، رغم جبروتها، كانت تعرف من هم أهل "أران". لم تنم ليلًا دون أن تحسب حساب تلك المدينة، التي كانت كلما خمدت نارها اشتعلت مجددًا من بين الصخور. كانت تعرف أن عروق التاريخ لا تُقلع، وأن من قاتل الظلام مرة، سيقاتل طغيانها ألف مرة.

ولهذا، حاولت دفن تاريخهم، إخفاء بطولاتهم، واستبداله بروايات زائفة كتبتها أقلام الخوف.

لكن رجال "أران" لم يسكتوا. كانوا ينقضّون من الجبال كالنسور، يشنّون الهجمات الخاطفة على حاميات المملكة، يطالبون بحقهم، وأرضهم، واسمهم الذي مُحي عن السجلات. كل معركة خاضوها لم تكن مجرد قتال، بل صرخة في وجه النسيان، في وجه الظلم الذي أراد أن يقتلعهم من جذورهم.

كانوا رمحًا في خاصرة المملكة، لا يُكسر ولا يُشترى.

وكان صوتهم... بداية لما سيأتي.

بدأ أليار رحلته بعدما غادر نيرال ، كانت عيناه دومًا تتجه إلى الشمال... إلى ناحية "أران"، الأرض التي تحدث عنها شيخه العجوز مرارًا، الأرض التي لا تزال تنبض بتاريخ الممالك الحقيقي، حيث لم تُنسَ الحكايات، ولم يُمح التاريخ بالسيوف، بل نُقش على الصخور.

لم يكن يعرف ما ينتظره هناك، لكنه شعر دومًا أن الشمال يحمل له مفاتيح قديمة.

هؤلاء لم يكونوا فقط محاربين، بل جبال تمشي على قدمين. رجالهم صلبون كالصخر، ونساؤهم يحملن في أعينهن وهج الثورة. كان الوصول إليهم مخاطرة، لكن أليار لم يكن يبحث عن الراحة... بل عن بداية.

قوم "أران"، رجالهم مقاتلون بارعون لا يُضاهَون، وقلوبهم لا تعرف الخضوع، فقد وُلدوا أحرارًا، ويؤمنون أن الحرية لا تُوهب، بل تُنتزع.

كانوا يأخذون من الجبال حصونًا، ومن الكهوف أوطانًا، ومن السماء أملاً.

ورغم المحاولات المتكررة، لم تتمكّن الملكة من القضاء عليهم. قوتهم، شجاعتهم، ومواقعهم الوعرة جعلتهم أشبه بأسطورة تتكرر ولا تنكسر.

شقَّ أليار طريقه بين الصخور العالية، وسُمِع وقع خطواته يتردد في صمت الجبال. خلفه ثلاثة من مقاتلي قوم "أران"، أعينهم لا تتركه لحظة، وسيوفهم لا تفارق أغمادها، فقد دخل أرضًا لا يدخلها أحد إلا بإذن أو بقيد

قادوه عبر ممر ضيق نحو وادٍ خفي بين الجبال، تحيطه أشجار الصنوبر، ويخترقه نبع صافٍ، كانت هناك نار مشتعلة، يجلس حولها رجال ذوو نظرات صارمة، ووجوه كالحة سمراء بفعل الشمس والمعارك.

وفي قلب المكان، جلس رجل وقور، كثيف اللحية، تلمع في عينيه حكمة الجبال وقسوتها... كان هو زعيم قوم "أران"، يُدعى تارغان.

وقف أليار بثبات، ونظر إليه مباشرة، ثم قال:

لم آتِ كعدو... بل كمن يبحث عن العدالة، وعن حلفاء لا يبيعون دماءهم.

سادت لحظة صمت، ثم ردّ تارغان بصوتٍ أجش:

نحن لا نبيع دماءنا، ولا نعطي ولاءنا لمن لا يفهم الأرض التي نمشي عليها. من أنت حتى تطلب منا الوقوف معك.

اقترب أليار خطوة.

أنا من عرف الحقيقة بعد أن عاش في كذبة المملكة. علمت أنكم أصحاب الأرض... وأن ملكتي سجنت زعيمكم، وسلبت حقكم. لا أطلب جيشًا، بل تحالفًا. المملكة في يد سيرينا... فلن تسلموا أنتم أيضاً.

نظر الزعيم إلى أليار ، في عينيه بريق تردّد بين الغضب والاحترام.

أنت تجرؤ... هذا شيء لا نراه في رجال المملكة كثيرًا.

ثم أردف، بنبرة غامضة:

“لكن الشجاعة وحدها لا تكفي... لتكسب ثقة قوم “أران”، عليك أن تمر باختبار الجبل.

وقف أليار أمام الزعيم تارغان، وهو يشعر بثقل كلمات الرجل الثقيلة. أعين رجال قوم “أران” كانت تراقب كل حركة، والهواء في الجبال كان شديد البرودة، كما لو أن الجبال نفسها اختبرت من يجرؤ على اقتحامها.

قال تارغان بصوتٍ عميق:

“لكي تُثبت أنك أهل للثقة، يجب أن تخوض اختبار الجبل. نحن لا نثق في من لا يعرف صعوبة الحياة هنا، ولا يقوى على الصبر والتحمل. هذا ليس مكانًا للضعفاء.

تقدم أحد المقاتلين من قوم “أران”، وحمل معه حقيبة تحتوي على أدواتٍ بدائية: حبل قوي، سكين حاد، وعدد من المواد التي لم يعرف أليار ماهيتها بعد.

“سيأخذك أحدنا إلى قمة الجبل، حيث يوجد هناك ممر ضيق بين الصخور، عليه يمكنك إثبات قوتك وقدرتك على البقاء على قيد الحياة هنا.

أخذ أليار نفسًا عميقًا، ثم نظر إلى الزعيم وقال:

“أنا مستعد.”

قاد المقاتل أليار عبر المنحدرات الحادة، وصخور الجبال التي كادت أن تسقط تحت قدميه في أي لحظة. الرياح كانت تعصف من حولهم، وتكاد تدفعهم إلى الهاوية، وكان الصمت قاتلاً إلا من صوت أنفاسهم، وأحيانًا صرير الصخور تحت أقدامهم.

وصلوا أخيرًا إلى الممر الضيق، وكان محاطًا من جميع الجوانب بجدرانٍ صخرية عالية، لا يكاد الضوء ينفذ إلى داخله. كان الطريق ضيقًا جدًا، يكاد لا يتسع لشخصين، والحواف كانت حادة لدرجة أن أي خطوة خاطئة قد تودي بحياة المرء.

قال المقاتل:

“من هنا تبدأ اختبارات الجبل. عليك أن تتجاوز هذا الممر، في ظل الظلام، دون أن تستخدم أي مصدر ضوء. لا توجد قواعد، سوى أن لا تسقط.”

بدأ أليار بخطوات مترددة، وكلما تقدم في الممر الضيق، زادت الرياح شدة، وكأن الجبال نفسها تعاقبه على جرأته. كان يلمس الجدران بعناية، يحاول تجنب الصخور الحادة التي كانت تبرز هنا وهناك.

لم يكن الأمر مجرد اختبار للقوة الجسدية، بل لاختبار عزيمته. هل سيستسلم؟ هل سيقف عند أول عقبة؟ أم أنه سيستمر حتى النهاية؟

لكن مع كل خطوة، أصبح أكثر إصرارًا. كان يفكر في ليان، في حقِّ الأرض الذي يعرف أنه يجب أن يُستعاد، وفي قوم “أران”الذين يُجسّدون ما يعنيه أن تكون حرًا، وألا تخضع للظلم.

أخيرًا، وبعد ساعة من المشي المتواصل في الممر الضيق، وصل إلى نهايته. كان قد خاض التحدي بالكامل، وكان قد اجتاز الممر الضيق الذي لم ينجح فيه الكثيرون من قبل.

عندما خرج أليار إلى مساحة واسعة فوق الجبل، وقف المقاتل خلفه وقال:

“لقد أثبت أنك لا تخاف من الظلام ولا من الرياح القوية، وأنك قادر على التحمل. قوم “أران” لا يثقون في من لا يمكنه المواجهة.

ثم عاد المقاتل إلى القمة حيث كان الزعيم تارغان، وأعلن أمام الجميع:

لقد اجتاز هذا الرجل اختبار الجبل. هو جدير بثقتنا.

نظر تارغان إلى إليان بعينين مليئتين بالإعجاب، وقال:

“لقد أظهرت أنك من معدن نادر. نحن الآن حلفاؤك، ولكن تذكر... لا تكون أبدًا عبئًا علينا.

علم أليار أنهم لا يقاتلون عبثًا، بل يدافعون عن حقٍ سُلب، وعن زعيمٍ أُسر، وعن أرضٍ أُهينت..

فهم أليار، أخيرًا، أنه لن ينتصر في حربه ضد الظلم والسحر، إلا إن وقف هؤلاء القوم إلى جانبه... أولئك الذين لا يقاتلون لأجل السلطة، بل لأجل الحق.

فقد أخبرهم بانه عليه الذهاب الى الجنوب حيث هناك سر ويحب اكتشافه على ان يتدربوا الى ان يعود إليهم ويشكلوا جيشا مواحد لقضى على الملكة.

غادر أليار قوم "أران"، وكان قلبه مثقلاً بعواطف لم يعرفها من قبل، تابع طريقه في الصحراء الصخرية المؤدية إلى المدينة المجهولة. الشمس كانت تحرق جلده، والرياح تعوي في أذنيه كأنها تحذره من الاقتراب. لم تكن هناك أي إشارات، فقط أرض ممتدة بلا نهاية، وخريطة محاها الزمن من الذاكرة البشرية.

بعد ثلاثة أيام من المسير، ظهر أمامه ضباب كثيف أشبه بالحائط.

لم يكن ضبابًا عاديًا، بل رماديًّا كثيفًا يهمس بأصوات خفية... أصوات أطفال يضحكون، شيوخ يبكون، نساء يغنين... تردد أليار لوهلة، لكن دفعه فضوله، فدخل.

في الداخل، اختفى الزمن.

كلما تحرك خطوة، تغيرت الرؤية أمامه. أحيانًا يرى منازل مهدّمة، وأحيانًا قصورًا مذهّبة، وأحيانًا يرى نفسه صغيرًا يركض خلف أمه التي لم يعرفها. ثم فجأة... انقشع الضباب، وظهرت أمامه المدينة الملعونة.

مدينة السراب – أرض الخداع.........

كانت المدينة عملاقة، جدرانها من الكريستال النقي، وشوارعها مرصوفة بالحجارة السوداء اللامعة. كل شيء فيها يشبه الحلم: ناس يضحكون، أطفال يركضون، عطور تعبق في الأرجاء... لكن هناك شيء لم يكن طبيعيًا.

كأن الجميع يرتدون قناعًا واحدًا. لا أحد يعبّر بالحزن، لا دموع، لا أنين. كل شيء "مثالي" بشكل مريب.

اقترب أليار من أحد الشبان، وسأله:

– هل كل شيء دائمًا بهذا الجمال هنا؟

– بالتأكيد نحن في مدينة السعادة، المدينة التي لا تحزن، ألا ترى؟

لكن عيني الشاب ارتعشتا للحظة، ثم استعاد ابتسامته الميكانيكية.

علم أليار من مراقبته أن كل المواطنين يتناولون كبسولات صغيرة مرتين يوميًا. لم تكن مجرد "مكملات سعادة" كما يدّعون، بل كانت تحمل مكونات تجعل الإنسان في نشوة مزيفة، تُميت فيه القلق، والشك، والرغبة بالتغيير.

وفي كل شارع، كانت هناك مجسّمات دعائية تقول:

"ابتسم... أو اختفِ.

علم أن في هذا السحر الكامن داخل الكبسولات، أكثر من مجرد وهم. إنه أداة قمع وتهيئة للأرواح، تتغلغل في عقول الناس وتُبعدهم عن التفكير في مآسيهم. كان الهدف من بيع هذه الكبسولات ليس مجرد إسعاد الناس، بل إبعادهم عن التفكير في الثورة ضد المملكة، وعن الحروب التي قد تهدد عرش الملكة.

أنت لست بحاجة للقتال أو الهموم، فخذ هذه الكبسولة وستشعر بالسعادة، كان يردد بائعو الكبسولات.

لكن سرًا، كانت هذه الكبسولات تحتوي على خليط من المواد السحرية التي تمنع العقل من التفكير في شيء أكثر من السعادة المؤقتة، وتكبح أي رغبة في التمرد أو التفكير في تغيير النظام.

لم يكن الهدف الوحيد من هذا المخدر هو إبقاء الشعب مشغولًا في لحظات السعادة الزائفة. بل كان من الأهمية أن تمنع أي تحالفات مع ممالك أخرى، وأن تحطم أي

محاولة للتعاون بين الشعوب المجاورة ضد الملكة. إذا كان الشعب يعيش في سعادة زائفة، فلن يفكروا في حرية أو استقلال أو أي نوع من الوحدة مع القوم الذين يقاومونه.

الملكة سيرينا كانت تعلم تمامًا ما تفعله. لم تكن الكبسولات مجرد وسيلة للسيطرة على الشعب، بل كانت أيضًا مصدرًا ماليًا هائلًا. فكل كبسولة تُباع مقابل سعر مرتفع، يذهب معظم ربحها إلى خزائن القصر، مما يجعل المملكة تزداد قوة من الداخل.

"ما دام الناس في سعادة، فلن يفكروا في التمرد أو الثورة... ولن تتوحد الممالك ضدنا." كان هذا هو الشعار الذي يتردد في ذهن الملكة بينما كانت يشرف على عمليات الإنتاج والتوزيع أحد اتباعها ويدير شؤون هذه المملكة ولكن بأوامر منها.

وبهذه الطريقة، كانت الملكة سيرينا تخدم مملكتها بشكلين: الأول بإبقاء الناس مشغولين عن أي تفكير في حروب أو مقاومة، والثاني بتعبئة خزائن المملكة بالمال من بيع الكبسولات المزيفة، بينما العالم الخارجي كان يعيش في أوهام من السعادة والطمأنينة.

شاهد أليار الوجوه المعلّقة في أحد الأزقة، وبينما كان يتجول خلسة في الليل، لمح أليار مشهدًا مرعبًا:

فقاعات شفافة تتدلى من جدران عالية، بداخل كل واحدة منها إنسان حقيقي – رجل، امرأة، طفل – معلقون كدمى، أوجههم حزينة، أجسادهم هامدة، وعيونهم مفتوحة تنظر بصمت.

هذه كانت "عقوبة المشاعر السلبية"، كل من يظهر الحزن أو القلق، يُعلّق حيًا في هذه الفقاعات، حتى يموت أو يدفع أحد أقاربه ثمن حريته الباهظ.

وفي الليلة الثالثة من مكوثه، شاهد بعينه ظهور "الظلام الحي".

قبل منتصف الليل، انطفأت أضواء المدينة فجأة، وتسلل صمت مطبق في الأرجاء. ومن بين الشوارع، خرجت كائنات مخيفة، طويلة القامة، مغطاة بعباءات سوداء، لا يظهر من وجوهها إلا عينان حمراوان تلمعان مثل جمرتين. تسير ببطء، لكنها تبث الرعب في قلوب الجميع.

كان الناس يختبئون في بيوتهم، يغلقون النوافذ، يطفئون الأنوار، كما لو أن هذه الكائنات تستشعر الحزن أو الخوف.

راقب أليار مشهدًا مخيفًا:

امرأة عجوز لم تتمكن من إغلاق بابها في الوقت المناسب، صرخت "ساعدوني"

لكن الجميع تجاهلها، وهاجمها كائن من الظلام الحي، رفعها بيد واحدة، وابتلعها داخل عباءته السوداء، ثم اختفى.

في صباح اليوم التالي، أليار جلس على حافة نافذة أحد البيوت القديمة حين اقترب منه صبي صغير وهمس له:

– أنت لست من هنا، صح؟

– صحيح.

– إذًا تعال، هناك من ينتظرك...

قاد الصبي أليار إلى نفق سري أسفل المدينة، حيث مجموعة من المنفيين – رجال ونساء رفضوا تناول كبسولات السعادة، وبعضهم فقد أحباءه في الفقاعات المعلقة.

هناك التقى بـ"ميسرا"، قائد مجموعة المتمردين، الذي قال له:

– هناك من يستطيع مساعدتك، اسمه رجل الأمل. لكنه بعيد، في منطقة لا يصلها أحد، خلف غابة المرايا.

– كيف أصل إليه؟

– هناك طريق واحد فقط، عبر البوابة المحرمة... لكنها محمية بجنود الملك وكائنات الظلام. ستحتاج إلى عبور ثلاثة اختبارات.

في الليلة ذاتها، وبينما تسلل أليار من نفق المتمردين، حمل معه خريطة قديمة مرسومة بالحبر الفحمي، خطّها أحد كبار السن الذين حاولوا من قبل الوصول إلى رجل الأمل، لكنه لم ينجُ. قال له ميسرا قبل أن يغادر:

كن مستعدًا... فليس كل من عبر تلك البوابة خرج حيًا. هناك اختبارات تختبر عقلك، قلبك، وجسدك. الفشل لا يعني الرجوع... بل الفناء.

بوابة الأمل تقع في وسط غابة تُدعى غابة المرايا. أوراق الأشجار فيها لامعة كأنها زجاج، وجذوعها تُصدر همسات تشبه أنين الأرواح. كل شيء في الغابة يعكس شكلك، لكن مشوهًا.

وأمام البوابة... كانت تقف كائنات الظلام الحي.

لكن وللمرة الأولى، استخدم أليار ذكاءه لا سيفه. استخدم خيوط الضوء الناتجة عن بلورات متوهجة، ليصنع دائرة حوله تعكس الظلال، ما أربك الكائنات لثوانٍ، فاستغل اللحظة واندفع نحو البوابة، ودخل قبل أن تُغلق من جديد.

وهكذا، بدأ الاختبار الأول.

دخل أليار كهفًا مظلمًا لا يُرى فيه شيء، ولا يُسمع فيه سوى صوت أنفاسه. فجأة، ظهر له نفسه! لكن ليس كما يعرفها. بل نسخة مظلمة منه، تقول:

"أنت لست سوى طفل هارب. تنبش في الماضي هربًا من الحاضر. لن تغيّر شيئًا... ستُقتل كما قُتل أبوك.

بدأت النسخة تهاجمه نفسيًا، تعرّيه من شجاعته. أحاطت به ظلاله الماضية: هروبه، ضعفه، إحساسه بالذنب لأنه لم ينقذ أحدًا.

لكن أليار أدرك شيئًا: هذه ليست الحقيقة. هذه مخاوفه.

رفع يده، وضعها على صدره، وردد ما قالته له ليان ذات مرة:

الخوف لا يُهزم بالقوة... بل بالصدق.

فانطفأت الظلال، وخرج من الكهف، بعدما أضاء حجرًا صغيرًا بيده لم يكن معه من قبل: حجر الحقيقة.

ثم وجد نفسه في سهل من الحمم البركانية والجبال الوعرة. السحاب ثقيل، والهواء حار كأنّ أنفاسه تحترق.

المطلوب منه: الوصول إلى صخرة أعلى الجبل قبل غروب الشمس، حافي القدمين، محمّلاً بالحجر الذي حصل عليه من الاختبار الأول.

خلال صعوده، جُرح أكثر من مرة، وسقط عدة مرات، لكنه كان يسمع صدى صوت صديقه في خياله:

هي حاول... أنت أقوى.

أصيب أليار بنزف شديد في ساقه، لكن لم يتوقف، حتى وصل إلى القمة، ووضع الحجر في الفتحة الموجودة في الصخرة. فاندلع نور أبيض فتح له طريقًا جديدًا.

نجح... لكنه سقط مغشيًا عليه.

استيقظ في أرض تشبه قريته القديمة. سمع صوت ضحك أطفال. رأى أمه تمشي نحوه، وأبيه يناديه باسمه.

"ابقَ معنا، يا أليار. هنا الحب، هنا العائلة، لا حاجة للحرب. لا ترحل مجددًا...

دموعه انسابت، ورغب للحظة أن يستسلم.

لكن شيئًا بداخله تذكّره: "هذه مجرد وهم... حب سهل لا وجود له.

تقدّم نحوهم، أراد أن يعانقهم، لكنهم اختفوا فجأة، كأنهم دخان. ثم ظهر أمامه قلب مضيء، ينبض في الهواء، فمدّ يده إليه.

نجح في اختبار القلب... لأنه اختار الحقيقة على الراحة.

وصل إلى رجل الأمل فتح الباب الحجري بعد اختباره الأخير، فوجد كهفًا داخله رجل مسن يرتدي رداءً بلون الغسق. لم يكن وجهه واضحًا، لكن صوته كان قويًا كالعاصفة وهادئًا كالماء.

أخبره بالخطة:

عليها تدمير مصنع الكبسولات الرئيسي، المدفون تحت القصر.

ثم أن يقوم بفضح هوية كائنات الظلام أمام الناس علنًا.

ونشر رسائل الوعي في المدينة قبل بدء الثورة.

وأن يستغل لحظة ظهور الكائنات لفتح البوابة أمام المتمردين من الخارج.

وأعطاه هدية:

قلادة تحوي قطعة من حجر الحقيقة، تساعده على كشف الكذب والخداع.

الصمت أقوى من الصراخ أحياناً... لكنه ينهار حين تأتي كلمة الحق.

عاد أليار إلى المدينة، يسير بين الأزقة متخفيًا، يرتدي عباءة سوداء تخفي وجهه وقلادة رجل الأمل تحت ثيابه، تنبض بحرارة كلما اقترب من قلب الخداع. دخل من النفق السري مرة أخرى، وهناك استقبله "ميسرا" والرفاق بدهشة.

– حيّ أنت؟! مستحيل

– وعدت أن أعود... ومعي النور.

أخبرهم أليار بكل شيء. عن رجل الأمل، عن الاختبارات، عن الخطة. وجوههم بين الأمل والخوف، لكن شيئاً ما تغيّر هذه المرة... في عيني أليار نار لا تنطفئ.

أليار بدأ بكتابة رسائل سرية، بخط دقيق، على أوراق تُخبّأ داخل أرغفة الخبز، ملابس الباعة، أسفل المقاعد العامة.

الرسائل كانت تقول:

“ما ترونه سعادة، هو عبودية. ما تتناولونه، مخدر. من يبتسم لكم، خائف. افتحوا عيونكم... الحقيقة بدأت تُولد.

الناس بدأوا يتغيرون... نظراتهم أقل خضوعًا، ابتساماتهم أقل اصطناعًا. كانت القلادة تهتز في صدر أليار كلما انتزع أحدهم وهمه القديم.

في إحدى الليالي، وفي اللحظة التي خرجت فيها كائنات الظلام الحي، صعد أليار فوق سطح السوق، وأخرج قطعة من حجر الحقيقة، رفعها أمامهم، وهم يحدقون به.

وفجأة...

تشقق أحدهم.

العباءة تمزقت، وخرج منها كائن... إنسان.

نعم، كائنات الظلام الحي لم تكن سوى بشر خضعوا لتحوير جسدي باستخدام مزيج من السحر والعقاقير القديمة، يجعلهم أقوياء ومشوّهين.

بدأ الناس يصرخون:

– إنهم بشر! إنهم نحن

وسقطت أول كذبة. المدينة اهتزت. النظام بدأ يتصدع.

تحت الأرض، تحت قصر الملك الظالم، كان مصنع الكبسولات يعمل بلا توقف.

في الليلة التالية، قاد أليار بنفسه مجموعة من المتمردين عبر شبكة من القنوات القديمة، مزوّدين بزيوت حارقة وسيوف حجرية.

التسلل استمر لساعتين، الصمت كان قاتلاً.

عندما وصلوا، كانت الحرارة تصدر من الجدران، وصوت الماكينات يئن.

– "الآن!" – صرخ أليار.

اندلعت النيران، انفجرت الخزانات، وتصاعدت الأدخنة السوداء. الحراس لم يصدقوا أن هناك من جرؤ على مهاجمة هذا القلب الصناعي.

كانت تلك أول ضربة حقيقية.

انتفاضة المدينة الناس لم يعودوا يخافون. حين أشرقت الشمس، كانت رسائل أليار قد ملأت الجدران، والمشاهد عن الكائنات الحقيقية قد انتشرت.

خرج السكان إلى الشوارع، بدون كبسولات، يصرخون:

نحن لا نبتسم بالخوف نحن نعيش بصدق.

جنود المدينة، المرتبكون، لم يجدوا أمامهم سوى الهروب.

في قلب القصر، وقف الملك، مرتديًا قناعه الذهبي، وخلفه آخر من بقي من الكائنات الظلامية المعدلة.

أليار دخل مع خمسين من المقاتلين. القتال استمر ساعات.

الكائنات قاتلت بشراسة، لكنها أضعف من أن تواجه قلوبًا تحررت. أليار واجه الملك وحده. معركة بالسيف والذكاء.

الملك حاول خداعه، بالكلمات، بالعروض، بالندم:

"أنا فقط أردت شعبًا لا يتألم

– لكنهم لم يعيشوا الموت أهون من الزيف.

أصبحت المدينة حرة.

الفقاعات الشفافة تم تدميرها، المصانع أُغلقت، والبنية الجديدة بدأت.

أليار تم ترشيحه كزعيم، لكنه رفض اللقب، وسمّى المدينة: "مدينة الأمل

بضربة مفاجئة، كسر أليار قناع الملك.

وإذا بوجهه الحقيقي يظهر: رجل عجوز، خائف، كان يختبئ خلف سلطته.

أليار لم يقتله... بل تركه للناس.

عندما علمت الملكة أن "الفتى الغريب" قد أسقط مدينة الأمل، وكشف حقيقة الكائنات، واستعاد دعم الناس... بدأت ترتجف. لم تكن تخاف على العرش، بل على السر.

ذلك الشاب، ابن زوجها الحقيقي.

"ابن من حاولتُ محوه... يعود ليسحقني؟"

فأمرت ممالكها الخمس بالتعبئة. أرسلت رسائل عاجلة إلى جميع حكّام المماليك، والذين هم أتباعها، لبدء الحرب الشاملة.

أليار لم ينتظر. جمع ما بقي من "جيش الأمل"، وبدأ يتسلل إلى الممالك الواحدة تلو الأخرى، مستخدمًا:

الكلمات قبل السيف، التعليم قبل التخويف، والأمل قبل الانتقام.

في كل مملكة يدخلها، كان يرسل نسخًا من كتاب "الجهة المحرّمة" الذي خبأه سابقًا، ويقرأه للناس علنًا في الساحات.

"هذه ليست حربًا على الملكة... بل على الجهل."

المعركة الأولى: مملكة القائد الحديدي.

في مملكة كراس، كان الحاكم يلقب نفسه "القائد الحديدي"، رجل لا ينام، ولا يتحدث، فقط يُصدر أوامر بالإعدام.

تسلّل أليار إلى المدينة، وبدأ بنشر الكتب، وتعليم الأطفال سراً في المغارات.

وخلال شهر، تشكلت حركة تمرّد يقودها معلمو المدارس.

وحين قرر القائد إعدامهم، قاد أليار كمينًا على منصة الإعدام، وقلب المعركة خلال النهار.

سقطت المملكة الأولى... بالعلم، قبل الدم.

مملكة الظلال:

هذه المملكة كانت تُدار بالسحر والتنجيم فقط. الحاكمة، "ميرا كانت تستعين بالمنجمين لبث الرعب.

دخل أليار متخفيًا كأحد الكهنة، وواجهها أمام الناس، مستخدمًا حجر الحقيقة. وكشف أن "النبوءات" التي كانت تسيطر بها على الناس، كلها مختلقة من قبل رجال الملكة.

فانقلب الناس عليها، وتمت السيطرة على المملكة دون قطرة دم.

عاد أليار إلى جبال "أران"، حيث وُلدت فيه أول شرارة للتمرد. استُقبل هناك كابن عائد من معركة القدر، وكان في انتظاره كبار القوم وقادة المجموعات السرية، وجميعهم متعطشون لأملٍ جديد بعد سنين من القهر والتشريد.

في ساحة عالية على مشارف وادي "ناروس"، حيث تتقاطع الرياح القادمة من شمال مملكة "أران"مع نسائم الجنوب الساخنة، وقف أليار أمام قادة الجيوش المتجمعة من كل جهة:

رجال أران الشرسون أصحاب الجبال، شباب القرى الذين نهضوا بعد القهر، مقاتلو مدينة الكبسولات الذين عرفوا طعم الحرية بعد سنوات من الوهم، ومجموعة قليلة من حكماء الجنوب الذين ظلوا مختبئين خلف الأساطير.

رفع أليار يده اليمنى، وعلى جبينه انعكست شمس الغروب بلون اللهب، وقال بصوت اهتزت له الأرض:

"لقد حان الوقت...

سنُهاجم المملكة من جهتين.

أنتم يا قوم "أران" وأبطال الشمال، ستنقضّون من جهة بوابة الريح، حيث لم تتوقعهم يومًا. فأنتم من عرف تلك الأرض منذ الأجداد، وهي تعرف وقع أقدامكم.

أما نحن، أهل الجنوب، والقرى الحرة، ومدينة الكبسولات... فسنزحف من جهة سهل أورا حيث تنتظر الملكة احتفالات زائفة لا تعرف أنها احتضارها.

عمّ الصمت برهة، قبل أن يكمل، متجهًا بنظره إلى قائد أران، الشيخ المحارب "تارغان":

"سنلتقي... نحن وأنتم، على مشارف بوابة القصر الكبيرة... وهناك، سنُطلق شرارة النهاية... لا حربين، بل حرب واحدة تبدأ من جهتين... وتنتهي عند عرش الظلم."

فجأة، تقدم شاب من الخلف — أحد المحررين من مدينة الكبسولات — وسأل أليار:

"وهل سنكفي؟ الملكة تملك السحر... والجن... كيف نواجههم؟"

ابتسم أليار ، ومدّ يده إلى جراب سيفه، وأخرج قطعة من الياقوت القاني، تشع بالنور.

"لا نواجه السحر بسحر، بل بالحقيقة... لا نُحارب الجن بالخوف، بل باليقين.

سيوفنا مصنوعة من الحجر الذي كسر شوكة الظلال منذ قرون.

وسنغمسها في الأعشاب المباركة كما أخبرنا شيخ الإخلاص.

وكل خطوة، ستشتعل الأرض نارًا... فهذه الأرض معنا... وغضبها معنا."

غدًا، ستحترق خُرافاتهم أمامنا... وغدًا... لن يُقال إن أحدهم خضع."

ارتفعت الهتافات. وبدأ التحرك.

أران كانت الجبهة الشمالية، فتقدمت من الجبال، وشنّت أولى الضربات على الحصون الشمالية للمملكة، مما أربك خطوط الدفاع الملكية.

زودت أليار بـفرسان الجبال، الذين لا يُهزمون في القتال المباشر، وكانوا نواة جيشه الأول.

أمدوه أيضًا بـالكتاب الأحمر، وهو نسخة قديمة محفوظة لديهم من كتاب تضم ما محته الملكة من خريطة المعارك، طرق استخدام أسلحة ضد السحر، وصفات أعشاب الياقوت، وتقنيات مقاومة الجن والسحرة.

في أحد الممرات الضيقة بين جبال أران ومدينة "كاهور" الواقعة تحت نفوذ الملكة، أمرت الملكة بإرسال جيش قوامه ١٥٠٠ جندي لاجتياح أران من الشمال.

كان لابد من وقفة.

قاد تارغان ٢٠٠ محارب فقط من رجال أران — يرتدون دروعًا من جلود البقر المملحة والمغطاة بمسحوق الرماد الأسود، يتنقلون في الليل كالأشباح.

نصبوا كمينًا داخل الوادي الحجري، وأخفوا أنفسهم بين الصخور. وعند مرور الجيش، كانت الإشارة من سهم واحد مشتعِل أطلقه تارغان نحو السماء... ثم سقط الجحيم.

انهالت الصخور من أعلى الجبال، وقُطعت الطرق خلفهم وأمامهم، وبدأت أفا القتال بالصراخات القديمة —

كانت تلك المعركة تُدرس لاحقًا في كتب "أليار" بأنها أعظم كمين تكتيكي في تاريخ الثورة ضد الملكة، حيث هزم ٢٠٠ محارب، جيشًا بسبع مرات عددهم، بأقل خسائر.

الرياح تعصف، والرعد ينفجر كأن السماء نفسها تشارك في الثورة... أليار واقف فوق التلة المُطلة على القصر الأسود، مع آلاف المحاربين من قرى الجنوب، وقبائل أران، وأهل مدينة الكبسولات الذين تحرروا من الوهم.

يتهيأ لخطته الأخيرة. وعلى يمينه، كان يقف تارغان ... الجبل، المتحصن بالندوب القديمة والشتائم التي لم تؤثر يومًا عليه.

أليار: "اليوم... لن نُسجل أسماءنا في التاريخ. اليوم... نحن نصنع التاريخ!"

صرخ تارغان صرخة الحرب الأخيرة:

"إما أن تُدفن خطواتنا تحت التراب، أو تكتبها الأجيال في التاريخ.

مع وصولهم إلى أطراف المملكة، اجتمع أليار مع زعماء الجبال وباقي الممالك وتارغان في الكهف، حول طاولة حجرية، حيث بدأ بوضع خطته للمعركة الأخيرة. قال لهم:

هذه ليست معركة غضب، بل معركة حكمة. لا نملك جيشًا كافيًا، لكننا نملك الجبال... ونملك الحق.

لم تكن معركتها مع الناس فقط، بل كانت تملك قوة خفية... الجن والسحرة، أولئك الذين بايعوها منذ عقود في تحالف مظلم مقابل السلطة والدماء.

لكن "أليار" لم يُفاجأ. فقد أخبره ملك الإخلاص من قبل، أن هذا اليوم سيأتي، وأن الحجر الياقوتي والجحيم الممزوجان ببعض الأعشاب الجبلية هو السبيل لمجابهة هذه القوى الغامضة. أمر بصياغة سيوف خاصة، تُغمس بزيتٍ دُهنت به أعشاب نادرة، وتُطلى برماد حجر الياقوت المقدس.

في الليلة التي سبقت المعركة الكبرى، طلب أليار من الجنود والمقاتلين أن يُغطوا أرض المعركة بأكوام من الأعشاب اليابسة، وأن يملؤوا الطبول القديمة بالزيت المحروق، دون أن يشرح لماذا. ظن البعض أنه يخرف، لكنهم فعلوا كما قال.

في صباح اليوم التالي، ظهر جيش الملكة على مشارف السهل، تصحبهم الظلال والسحر والدخان. فوق تلة صغيرة، كان أليار واقفًا، درعه يلمع تحت ضوء شمس محتجبة، ومن خلفه ألف مقاتل ينتظرون أمره.

هجم جنود الملكة، وصرخ أليار:

"دعوا الطبول تتدحرج... أطلقوا السهام الآن!"

بدأت الطبول المليئة بالزيت تتدحرج نحو جيش الملكة، ثم تبعتها السهام المشتعلة. انفجرت الأرض نارًا تحت أقدام الجنود، اشتعلت الأعشاب، وارتبك العدو، فبدأوا يتراجعون، يتعثرون، ويحترقون.

وسط الدخان والنار، قفز أليار برجاله حاملي سيوف الياقوت. وواجهوا السحرة والجن مباشرة. كانت ضربة من تلك السيوف تكفي لتحويل الشيطان إلى رماد. ارتفعت صيحات القادة.

النور ينتصر قائدنا لا يخون.

وفي خضم الفوضى، هجم أحد كبار سحرة الملكة مباشرة نحو أليار ، حاملاً رمحًا من ظل مسموم...

لكن تارغان ، الجبل، صرخ بقوة:

"أليار!!!"

وارتمى أمامه، ليتلقى الضربة كاملة في صدره.

ركع أليار إلى جانبه، والدماء تسيل من فم تارغان. كان يبتسم، يمد يده المرتجفة على وجه أليار:

"يا أليار ... الجبال، كانت تنتظر مثلك..."

"قل لابني... قل له إن والده مات واقفًا..."

"ولا تسمح لأحد... أن يسرق الأرض ثانية."

أغمض تارغان عينيه... وابتلع الجبل آخر همساته.

أليار نزل على ركبتيه، رفع رأسه نحو السماء، وصرخ:

"هذه النار... لا تُطفأ حتى أُحطم القصر على رأس الملكة.

من قلب القصر خرجوا... سحرة الجحيم، يُشعلون الهواء بدخان أسود كثيف، تصاحبهم كائنات غريبة لا وجه لها، مُغطّاة بالسواد، زاحفة، صامتة... إنها ظلال الظلام الحي.

كانت الملكة، المختبئة خلف قناع من ذهب، قد استدعت آخر ما تبقى لها من قوى الجان... آخر شعلة من النيران القديمة.

"احرقوا الأرض... لا أريد أحدًا حيًا بعدي!" — صرخت وهي ترمي بحفنة من رماد قديم.

الظلام تمدد على الأرض... جنود أليار بدأوا يتراجعون، لكن لحظة واحدة قلبت كل شيء.

قاتل أليار حتى وصل إلى بوابة القصر. كان متعبًا، مثخنًا بالجراح، لكن عينيه لم تفقدا بريق الأمل. واجه أعتى ساحرة في المملكة، كانت تلك التي مدت الملكة بقوتها.

بعد أن هدأت النيران، وتوقفت صرخات المعارك، وقف أليار أمام قصر الملكة، والسيوف مشهورة حولها، منهكة، مهزومة، لكن لم تكن خائفة... بل كانت تنظر إليه بنظراتٍ صامتة، كأنها تخطط لشيء ما، حتى في هزيمتها.

اقترب منها أليار ، ونظر في عينيها طويلًا، ثم قال:

"دماء شعبنا لا تحتاج مزيدًا من الدم. لن أقتلكِ... بل أطلب منكِ أن تغادري المملكة، وأن تنفِي نفسكِ بعيدًا... فهذا الوطن ليس لكِ بعد اليوم."

نظرت الملكة إليه بصمت، دون أن تنطق بحرف، كأنها تقرأ وجهه، ثم أدارت ظهرها وغادرت تحت أعين الجميع، نحو قرية نائية في الجنوب، حيث لا يعرفها أحد، وادّعت هناك أنها مجرد عابرة فقدت كل شيء. لكن في أعماقها، كانت الملكة القديمة تشتعل.

وقف أليار في ساحة المملكة، والجميع من حوله يهتفون:

"أليار ... أليار ... محررنا!

لكن صوته جاء هادئًا وهو يقول:

"أنا لست ملكًا، أنا ابن هذه الأرض... والعرش لكم، إن حافظتم على كرامتكم.

بعد سقوط القصر وانتهاء عصر الملكة، لم يكن الهدوء سهلاً كما ظنّ البعض. كانت الأرض تعجّ بالخراب، والجوع، واليتامى، لكن الناس للمرة الأولى شعروا أن النور في الأفق ليس وهمًا.

أليار لم يتسلّم الحكم، بل أسّس مجلساً شعبياً من شيوخ القرى والشباب، يسمّون بـ"حرّاس الأمانة"، ليكونوا صوت الناس في وجه أي سلطة قادمة.

بعد الانتصار، وبعد أن زُفَّت الثورة إلى أبواب المملكة الكبرى، وبعد أن أصبحت الأرض كلها تُردد اسم أليار...

ذهب وحده إلى سفح جبال أران... حيث قبر تارغان ، البطل الذي أنقذ الثورة.

ركع أمام قبره، ووضع عليه درعًا مصنوعًا من حجر الجبل الأصلي، محفور عليه:

"إلى من ثبت الأرض حين اهتزت، وحمل الجبل على ظهره... تارغان ، النبيل."

بكى أليار ، ولأول مرة، لم يكن قائدًا... كان صديقًا فقط.

وبينما كان الغروب يُلقي بظلاله الذهبية على التلال الصغيرة المحيطة بتلك القرية التي لم تنسَ الحرب، ولا الدماء التي سُكبت عليها. تحت شجرة صفصافٍ هرمة، على تلة تُطل على سهول منسية، وقف رائد أمام قبر صغير من حجر رملي بسيط، محفور عليه اسمٌ بالكاد يظهر بعد الزمن.

"سردار بن أياز... الصديق، الحارس، ورفيق القلب."

ارتجف صدر أليار. كانت عيناه قد رأتا ألف موت، لكن لم تنزل دموعه كما نزلت الآن.

انحنى، ووضع قلادة سردار القديمة التي احتفظ بها منذ المعركة الأولى بجانب القبر. جلس على الأرض، وأخذ نفسًا عميقًا كما لو أنه يحمل على كتفيه الكون كله.

ثم بدأ يُحدثه، بصوتٍ منكسر يشبه الريح الباردة:

"أتعلم، يا سردار؟

كنا صغارًا، نركض في أزقة المملكة، نلعب بالسيوف الخشبية، وتقول لي دومًا إنك ستكون سيفي إذا ما صرت يومًا ملكًا...

وها أنا، يا صاحبي... أصبحت ما حلمنا به، لكن... أين أنت؟

لم ترَ النصر، لم ترَ المعركة الأخيرة... لم ترَ النيران تبتلع الظلام. لم ترَ كيف أطفأت شموع الوهم في مدينة الكبسولات، وكيف ركع الظلام أمامنا..."

ثم صمت قليلًا، وكأن الهواء نفسه توقّف ليسمع اعترافه:

"لكني أقسم، سردار...

ما سرت خطوة إلا وكنت ظلّي.

ما رفعت سيفًا إلا وسمعت صرختك.

كل معركة كنت فيها... كنت معي.

كل نصر، لك فيه نصف القلب، ونصف المجد."

أخرج أليار من رداءه حجرًا صغيرًا محفورًا عليه رمز الطفولة، ذلك الذي نحتاه معًا في أحد جدران بيوت القرية قبل أن ينهدّ. وضعه فوق القبر بلطف، وقال:

"أنا لا أنساك... ولن أنسى.

ستظل أول من آمن بي، وأول من ضحى لأجلي.

هذه المملكة التي بُنيت من الرماد... لك فيها جدار من المجد."

وقف أليار ، ومسح دموعه بكمّه، ثم أدار ظهره للقبر. ومع أولى خطواته للرحيل، همس أخيرًا:

"انتظرني يا أخي... سأحكي لك يومًا، كل شيء، حين نلتقي هناك، في أرض لا يُقتل فيها الأوفياء.

وفي أحد الليالي المملكمة، حين خفّت الأناشيد، والناس غفوا بعد أيامٍ من الاحتفال، صعد أليار وحده إلى التلة المطلة على السهل، حيث بُني أول معسكر للثورة. هناك أخرج من معطفه شيئًا صغيرًا: قلادة من القش، كانت قد صنعتها له ليان، في تلك الليلة التي ودّعته فيها ودموعها تملأ عينيها.

"سأعود"، هكذا وعدها.

وفي صباح اليوم التالي، خرج دون حرس، دون سيف. فقط قلبه كان دليله.

قطع الجبال، وتسلّل عبر الممرات السرية التي لطالما عرفها، حتى وصل إلى القرية التي أحبّ فيها الحياة لأول مرة. كانت ليان قد كبرت قليلاً، ملامحها أكثر نضجًا، لكن عينيها لم تتغيرا، ولا انتظارها له.

حين رأته واقفًا على أطراف القرية، لم تقل شيئًا... فقط ركضت نحوه، واحتضنته كما لو أنها تعانق عمرًا كاملًا من الوجع، والفرح، والانتظار.

قال لها:

"لقد استعدنا العرش... ولكن لا أريد شيئًا منه، أريد فقط أن أوفي بوعدي.

ضحكت، وقالت:

"والآن، لستُ مضطرة أن أطلب منك الهرب... فقد أصبح الأمان في حضورك."

أعاد الناس بناء المملكة، ولكن ليس بالحجارة وحدها، بل بالصدق، والوفاء، والصداقة. كل من ناضل، أصبح حجر أساس في عهدٍ جديد.

كان أليار يردّد دائمًا:

“النصر لا يصنعه الغضب... بل ما بعد الغضب: الحكمة، والعفو، والوعد الذي لا يُخلف.”

ومنذ ذلك الحين، سُمّيت المملكة الجديدة باسم: هلات، شروق جديد والأرض التي استُعيدت بالحق، لا بالقوة وحدها.

وفي كل عام، في يوم “التحرر”، يُرفع تمثال صغير في الساحة المركزية، ليس أليار ، بل لرجل وامرأة يحملان القلادة المصنوعة من القش... رمز الحب الذي انتظر، وانتصر.

كان أليار يقف في الشرفة العليا لقصرٍ لم يعد ذهبيًا، بل مكسوًا بخشب الزيتون والحجر النظيف، يحكمه القلب لا التاج.

أمامه آلاف الناس، لا أحد يهتف، لا أحد يسجد، فقط... ينظرون إليه بعينين ممتلئتين بالكرامة.

في قلبه نار خافتة، وسماء ممتلئة بذكرى والده، ووجه أمه الذي لم يره، لكن يشعر به في ابتسامة كل طفل حرر كتابًا، أو كل فتاة زرعت أول زهرة في ساحة جديدة.

بجانب أليار وقفت ليان، تضع يدها في يده، تنظر نحوه كأنها تتأكد أن كل هذا لم يكن حلمًا.

قال بهدوء:

ليس النصر أن تنتصر على الظلم، بل أن تبني بعده شيئًا لا يعود فيه.

ولن نكتب تاريخنا... بل سنجعله يُقرأ من وجوه أبنائنا.

وأسفل الشرفة، كانت هناك قرية صغيرة تُزرع، مدرسة تُبنى، طفل يركض، وفتاة تحمل كتابًا.

العالم لم يكن مثاليًا، لكنه أصبح ممكنًا.

كانت السماء ملبدة بالغيوم، والهواء ساكنًا كأنه يخشى أن يهمس في حضرة الغضب.

في وسط ساحة إحدى القرى الصغيرة التي خضعت منذ سنوات لحكمها، وقفت الملكة سيرينا، شامخة كجبلٍ من السحر والنار. لكن هذه المرة، لم تكن تبتسم كباقي المرات.

بل كانت النار تأكل من جسدها ببطء، ليس حريقًا عاديًا، بل لهبًا أسود، خرج من أعماقها حين بلغ بها الغضب أقصى درجاته. كانت عينها تطلق شرارات كأنها نذير موت، ترمي من ينظر إليها بخوفٍ عميق في روحه.

كانت الليالي تمر ببطء، والعزلة تُغذي الحقد الذي يتغلغل في صدرها. جلست في أحد الأيام في كوخها البالي، تحدّق في النار، والدمع في عينيها... ليس حزنًا، بل غضبًا خامدًا.

وفجأة...

اشتدت النيران أمامها، ودوى صوت مظلم من بين اللهب.

ظهر أمامها جني شيطاني يعرف بين الجن بـ "المخرّب"، ذاك الذي قيل إنه قُتِل في معارك سابقة ضد سيوف الياقوت، لكن ها هو أمامها الآن، بقرونه السوداء وعينيه المتوهجتين، يخرج من ظلال الحطب المحترق.

صُدمت، ثم قالت:

أأنت... حي؟

ابتسم بخبث وأجاب:

الظلام لا يموت... بل ينتظر.

وقفت الملكة ببطء، ويدها ترتجف من الفرح، ثم قالت بصوت مملوء بالحقد:

هيا... لنبدأ من جديد.

ضحك الجني، وقال:

العالم نسي الظلال... وهذا وقتنا.

ومنذ تلك الليلة، بدأ الشر يتسرّب مرةً أخرى، ببطء، من بين الشقوق...........